مبرمَج لكنه حر

أشكال سوء الفهم حيال علم الوراثة

قيل وكُتب الكثير عن علم الوراثة ومنجزاته وآفاقه ومخاطر انحرافاته والكثير مما بدا نوعاً من الأعاجيب. وبدا بوضوح أن هناك خلطاً كبيراً في فهم حدوده والحقائق التي تتعلّق به وخاصّة ما رافقه من ادعاءات وأوهام ووصولاً إلى توصيف بعض العاملين في هذا الحقل أنهم يقومون بعملية «تضليل» حقيقي. وفي هذا السياق يقدّم «ارنولد مونيش»، مؤسس قسم الوراثة في مستشفي «نيكر» الشهير للأطفال في باريس، كتابا يشرح فيه دون أيّة تنازلات الأفكار الخاطئة الكبيرة والكثيرة التي يتم ترديدها في ميدان علم الوراثة وفي مجال الأمراض الوراثية، كما يشرح التقدّم الذي تمّ تحقيقه في المجال المعني. يحمل الكتاب عنوان «مبرمَج، لكنه حر».

المؤلف في سطور

ارنولد مونيش، طبيب فرنسي وأستاذ علم الوراثة في جامعة السوربون بباريس. وهو مؤسس قسم علوم الوراثة وأمراضها في مستشفى «نيكر: للأطفال في العاصمة الفرنسية. يعمل مستشاراً لدى رئاسة الجمهورية حول البحث في المجال الطبي. سبق له وقدّم كتاباً تحت عنوان»وسواس الأمل".

كلا

يكتب المؤلف في بداية هذا العمل: «إن الرأي العام يبالغ كثيرا في قيمة العلم، ويسبغ عليه من السلطات أكثر بكثير مما يمتلكه. ويبالغ أكثر أيضا فيما يتعلّق بعلم الوراثة، ويتصوّر أن مصيرنا منقوش في مورّثاتنا ــ جيناتنا. كلاّ، إن مورثاتنا ليست هي التي تقود مستقبلنا. والحياة ليست تراجيديا يونانية».

أشد خطراً

لا يتردد المؤلف في القول إن الوعود التي لا يتم الوفاء بها في المجال الطبي عموما وفي مجال المورثات خصوصا هي «أشد خطرا من التشخيص الخاطئ». ويصف تلك الوعود التي لا يتم الوفاء بها على أنها بمثابة «رصاصات قاضية» بالنسبة للمرضى ونوع من «الخيانة» بالنسبة لـ«الأهل».

اتجاه معاكس

يشدد مونيش بشأن هذه القضية على أن الباحثين ينظرون لها بنفس «الإيجابية» على اعتبار أنها تذهب باتجاه «الاعتراف بتقدّم ما يحققونه من نتائج». لكن يبقى هناك طرف أساسي يذهب في «الاتجاه المعاكس لمصلحته». يحدد المؤلف ــ الطبيب هذا الطرف بـ«المرضى المعنيين أنفسهم».

أفكار خاطئة

يحدد مونيش منذ البداية أن الأهداف الرئيسية من هذا الكتاب تكمن، من جهة، في تحذير المعاصرين من أولئك الذين ينشرون أفكاراً خاطئة ويتحدثون بثقة كما لو أنهم يجيدون القراءة في المورثات. ومن جهة أخرى قول الحقائق عمّا يمكن تأمّله«بشكل معقول» من علم الوراثة مثلما هو الأمر بالنسبة لمختلف العلوم. هذا في إطار التأكيد على أن الإنسان، ومهما بلغت درجة «البرمجة» التي تخبئها مورثاته وما تكشف عنه من أسرار، يبقى «حرّا».

هدف وقناعة

ما يؤكّده رجل العلم والطبيب المختص أنه من الضروري توضيح مختلف الحقائق للجمهور العريض وعدم ترك الساحة لتقديرات أناس مؤهّلين، لكن إلى هذه الدرجة أو تلك. هذا خاصة في ظل الميل لزرع القناعة بأن ما يتم إجراؤه في المختبرات من أبحاث هو بمثابة «تجارب سريرية» تجرى على البشر.

ضرورة

يؤكّد المؤلف على أهمية توضيح ما يجري فعلاً، هذا خاصّة أن العلماء المختصّين يأنفون غالبا من «التعبير عن شكوكهم وعن اهتزاز قناعاتهم بصورة صريحة وعلنية» حيال كل ما يتم الإفصاح عنه من قبل وسائل الإعلام وغيرها فيما يخص «إنجازات علم الوراثة» و«معالجة الأمراض الوراثية»، بمعنى المرتبطة بالمورثات ــ الجينات.

أسباب التكتم

يشرح الكتاب أن هناك العديد من الأسباب التي تدفع الباحثين للتحفّظ على آرائهم الحقيقية. وليس أقل تلك الأسباب ترددا الخشية من انقطاع الموارد المالية التي تسمح لهم بمتابعة أبحاثهم، وكذلك خشية تضاؤل الاهتمام بهم وبعملهم من قبل وسائل الإعلام وبالتالي من قبل المؤسسات والجهات التي ترعى مشاريعهم.

دور سلبي

يركز الطبيب الشهير، المؤلف، على تبيان الدور السلبي الذي لعبته «الاستثمارات المالية» وما أظهرته من «شهيّة» لجني أكبر كميات ممكنة من هذا المجال «الواسع» و«الواعد». وما يتوازى مع دور سلبي آخر تمثّل في «المبالغة في تسليط الأضواء الإعلامية» على هذا المشرب الجديد في عالم الطب والذي غدا، إلى هذه الدرجة أو تلك، يخضع لـ«قوانين السوق».

تواطؤ

المؤلف يكرّس العديد من الصفحات للتعرّض لمن يطلق عليهم توصيفات ، منها «الباحثون المزيفون» و«زارعو الأوهام» و«المضللون» وغير ذلك من النعوت التي تذهب في نفس الاتجاه. ووصولاً إلى التساؤل التالي: هل الجميع متواطئون؟

آمال كاذبة

من المسائل التي يتوقف عندها الكتاب تلك التي يشرحها تحت عنوان «الآمال الكاذبة» التي يحفل بها مجال علوم الوراثة وأمراضها. ويشير أن لمثل هذه الوعود الكاذبة «وظائف مهمّة» بالنسبة للمعنيين في المجال المدروس. ذلك أن «المستثمرين يعتبرون أنها ــ الوعود الكاذبة ــ تصب في صالح استثماراتهم».

فهم أفضل

يؤكّد مؤلف الكتاب على قاعدة أساسية يرى أنها تنبغي أن تحكم عمل الباحثين في ميدان علم الوراثة وأمراضها، كما في بقيّة مشارب العلوم. تكمن تلك القاعدة بالتأكيد أنه «ينبغي الفهم أفضل من أجل المعالجة بصورة أفضل».

نتيجة

يصل مونيش إلى نتيجة مفادها: عندما يتعذّر تقديم أي تشخيص محدد بدقّة، لا لبس فيها وعلى أساس معطيات مثبتة نهائيا، كيف يمكن التجرؤ الشروع بعلاج ما؟ بهذا المعنى يرى في المحصّلة أن هناك نوعا من الخلط بين «التوقّع» و«التشخيص». لكن هذا لا يمنع واقع أن الطب حقق تقدّما كبيرا.

الكتاب: مبرمَج، لكنه حر

الصفحات: 144 صفحة

الناشر: بلون باريس ــ 2016

القطع: المتوسط

البيان

إعداد: محمد مخلوف - غرافيك: أسيل الخليلي